خطبة الجامع الأموي لفضيلة الشيخ مأمون رحمة

٢٣ من ربيع الآخر ١٤٣٦ هـ / ١٣ من شباط ٢٠١٥ م

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله حق حمده، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّداً عبده ورسوله وصفيه وخليله، اللهم صل وسلم وبارك على نور الهدى مُحَمَّد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وارضَ اللهم عن الصحابة ومن اهتدى بهديهم واستنّ بسنّتهم إلى يوم الدين. عباد الله، أوصي نفسي وإياكم بتقوى الله عزَّ وجل، واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين.

يقول المولى ﷻ في محكم التنزيل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ورد في الحديث الصحيح أن جبريل الأمين عليه السلام سأل الأمين مُحَمَّداً ﷺ قائلاً: (أخبرني عن الإحسان) فأجابه: الإحسان ((أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)) [أخرجه مسلم].

نُريد أن نقف عند هذه الكلمة ((أن عبد الله كأنك تراه)) إن العبادة تشمل نوعين من الأعمال:

النوع الأول: الفروض العينية التي لا يخلو منها مكلف، وهذه الفروض تستهدف تزكية النفس، فما تصلح أي نفس إلا بها.

النوع الثاني: الفروض الكفائية، وهي التي يُسأل المجتمع بجملتها عنها، ويكلف بتوفيرها في نطاقه العام، ويعد أفراده قاطبة مقصرين إذا خلا المجتمع منها، وهذه الفروض تتصل بالملكات والمواهب التي يَتفاوت الأفراد فيها، وتَختلف مُيولهم إليها اختلافاً بَيناً، ومع ذلك فإن المجتمع يقوم على أداء كل فرد لما يُحسِن منها، ولك أن تسأل ما علاقة هذا الأعمال العادية بالدِّين؟ فالدِّين يُجيبك قائلاً: إن هذه الأعمال هي من صميم العبادات، وأنها حقاً فروض كفايات، وأن الهندسة والطب والزراعة والصناعة ومختلف الحرف تَدخل دخولاً محتوماً في دائرة الإحسان التي تناولها الحديث الشريف بهذه العبارة الموجزة ((أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)) وذلك لأن الإنسان هو محور النشاط الديني وموضع التكاليف السماوية، لا تستقر له حياة ولا يستقيم له وجود إلا إذا كُفلت له معايشه، وتعاونت ظروف البيئة على ضمانها، أي أنه يوجد ويستقر أولاً، ثم تلاحقه الواجبات بعد ذلك، وفي شبكة الأعمال المنثورة على هذا وذاك يَسري تيار الحياة العامة قوياً، ويتوزع على الأفراد ما يَصون معاشهم، ولن يستطيع أحدهم صلاةً

وصياماً وعبادةً إلا إذا تحقق هذا المعاش الحتم، ففروض العين لا توجد بعد أن تحقق فروض الكفاية، لو كان الإسلام –يا سادة– رَهبانيةَ صوامع رُبما انزوى في جانب منها واكتفى بأي لون من العيش، ولكنه دِين يبغي الاستيلاء على الحياة وإقامة عِوجها ومحاربة طواغيها، وعُدَّةُ هذا الجهاد تتطلب أمداداً مَوصولة من النشاط والخبرة والاستقامة والتَّضَلُّع في علوم الحياة والتمكن من أشكال الحرف.

إن مهنة الصيدلة أو مهنة الطباعة فرائض على المجتمع كالصلاة والصيام سواء بسواء، غاية ما هنالك من فرق أن الصلاة والصيام لا يَتخلف عن أداءهما أحد، أما فروض الكفاية فيُختار لها مَن يصلح لها، وكأنَّ الإسلام يقول لنا: إن عبادة الله في الحقل كعبادته في المحراب، وعبادته في المصنع كعبادته بالسعي والطواف، تَصَوَّر لو أن العرب والمسلمين مُتخلفون في صناعة الدواء، وأنهم في هذا عالة على غيرهم من الأمم، أَتظنهم بهذا التخلف يُسدُون إلى دينهم أو إلى أنفسهم جميلاً؟ أم تظنهم بهذا التخلف يهزمون مبادئهم ومثلهم العليا في أول معركة مع عدوهم؟.

تصور أنهم مُتخلفون في فن الطباعة أتراهم يستطيعون السيطرة على وسائل النشر وإبراز الحقائق، وإغراء ألوف القراء بمطالعتها والإقبال عليها؟ عِندما يَنضم إلى هذا العجز عِوَجٌ في فهم الدين نفسه واسترخاء في إجابة عزائمه فَهُنَا الطَّامَّة، ومن هنا ندرك أن الإنسان من الناحية الدينية لا يسمى محسناً إلا إذا استجمع الكمال الحسي فيما أدى من عمل والصفاء النفسي، نَعني بذلك قصد الله فيه، خُذْ مَثلاً على ذلك: إن الجراحة التي يُجريها طَبيب يتصف بالإحسان هي التي يجريها طبيب تجرد من الإحسان، والفارق بين هذا وذاك أن الطبيب المحسن لم تَفته نية الخير، ولن تنفك عنه صلته بالله، بخلاف الآخر، فالإحسان لن يضيع غرسه، ولا تتخلى العناية الإلهية عن صاحبه مهما كبت به الحظوظ وتعثرت به في المراحل الأولى، وقد بين القرآن الكريم أن الإحسان بهذا الشمول طَريقُ التمكين بالحياة، والاستيلاء على أزمتها، وملئها باليمن والبركة، ألا ترى إلى إحسان يوسف عليه السلام كيف جعله يتحول من شاب مختطف مستضعف، إلى رجل يلي أضخم المناصب وتصير الجماهير طوع بنانه، قال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢١-٢٢].

فالإحسان بلغ به المدى، وجعله في مصر مناط الآمال ومحط الرحال، وصاحب الإحسان –يا سادة– أهل لئن يبسط الله عليه كنفه ويلهمه رشده، وأن يكون أبداً معه، ولذلك جاءت الآيات تؤكد عناية الله به وصحبته له، حيث قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

إن الإحسان عمّ جميع المخلوقات حتى البهائم، فإذا ذبح الإنسان حيواناً لِيَأكله فليكن ذلك بأدب ولطف، وإلى ذلك أشار نبي الرحمة والإحسان بقوله ﷺ في الحديث الصحيح: ((إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته)).

رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يَقود شاة من رجلها ليذبحها، فقال: ويحك، قدها إلى الموت قوداً جميلاً.

وعن المسيب بن دارم رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ضرب جمّالاً وقال له: لم تحمل على بعيرك ما لا يطيق.

ورأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً حد شفرته وأخذ شاة ليذبحها، فضربه بالدرة وقال له: أتعذب الروح، أتعذب الروح؟ ألا فعلت هذا قبل أن تأخذها؟!.

فلو أُنفِذَ القِصاص في حق قاتل فليس القصد إزهاق روحه بأي وسيلة، وإن كان مجرماً، بل يجب إقامة أمر الله بنزاهة وترفع.

ومن الإحسان –يا سادة– يتولد الإتقان، لما كان الإنسان خليفة الله في أرضه، وكان تصرفه في عناصرها أثراً من نفخة الروح الأعلى فيه، كانت مرتبة الإحسان منشودة له بعض ما يربطه بنسبه السماوي العريق نسبة لله الذي أحسن كل شيء خلقه، ومن هنا استحب الله له أن يتقن كل ما يصدر عنه، وأن لا يُخرجه من بين يديه معيباً أو شائناً، وقد أرشدنا النبي ﷺ إلى ذلك إلى إتقان العمل، إلى تحسين العمل، بقوله في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم: ((إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه))

فالإتقان لا يتأتى بالادعاء والجهالة، فكل عمل أرضي أو سماوي يصح بها وتدرك بالعمل والمران.

إن الذي يجهل قواعد اللغة لا يُحسن البيان، والذي يجهل أركان الصلاة لا يُحسن العبادة، وكذلك الذي يجهل شؤون الحياة لا يحسن الإفادة منها ولا الإبداع فيها، ومن المؤسف –نعم من المؤسف– أن أقدام المسلمين زُلزلت في ميدان الدينا وميدان الآخرة، فوعيهم لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ضعيف، وفقههم لظواهر الحياة وبواطنها أضعف، وتوجيه الحياة وخبراتها وملكاتها لخدمة دينهم أشد ضعفاً، وليس من العبادة انتظار نجدة من السماء لتغيير هذه الأحوال، إننا من الناحية العامة بشر كسائر البشر، لنا ما

للناس من أسماع وأبصار وأفئدة، فلماذا تتعطل حواسنا وأفكارنا، وتنطلق حواس غيرنا وأفكارهم في كل مجال، ولماذا تَمَسُّ أصابعهم الأشياء فتجود وتمسها أصابعنا تضطرب.

لقد كان الناس عالة على آباءنا من الناحية الأدبية والمادية جميعاً، فما الذي عرانا حتى أصبحنا لا نُحسن استخراج المعادن من أرضنا، ولا بناء السدود والجسور على أنهارنا، ولا تشكيل الآلات في مصانعنا، ولا تطويع أدوات الحرب والسلم لحاجتنا.

إن إساءة المسلمين إلى دينهم وأنفسهم بالغة الشدة، كم تقدم أجدادنا وعلماؤنا في الماضي؟ وكم تراجعنا؟ وقد تتابعت الإساءات في العصور الأخيرة، واتسع نطاقها، وفشت بين العامة والخاصة جهالات غريبة في الدين، وجهالات أغرب بالحياة العامة، فإذا الأمة التي بقيت دهراً قلعة مرموقة تَرجع القهقرى، وتلاحقها الهزائم، ويكون وجودها عليها وعلى الآخرين، فهي كما قيل:

ويُقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يُستأمرون وهم شهود

انظر إلى هذا البيت، وجودهم وعدم وجودهم سواء، وهكذا أصبح حال الأمة اليوم مع الأسف، فالأمة التي تريد أن تضع لها مكانة في الأرض مكانة مرموقة بين الأمم عَليها بالعلم والإتقان، فهو الطريق الوحيد إلى التقدم والازدهار.

ستة وثلاثون عاماً مرت على انتصار الثورة الإسلامية في إيران، هذه الثورة التي قادها الإمام الخميني رحمه الله، هذه الثورة كانت نوراً للأمة العربية والإسلامية، وكانت ناراً على بني صهيون، هذه الثورة كانت نُصرة لهذه الأمة.

اعلموا أيها العرب أن إيران عندما تنتصر فإنكم أنتم منتصرون، وإذا انهزمت إيران فأنتم مُنهزمون، وها هي إيران جنت بعد أعوام طويلة أولى ثمرات ثورتها، عندما أطلقت أول قمر صناعي إلى الفضاء، وصانت العلم والعلماء، وعرفت مكانة العلم والعلماء، وها هي ثورتهم اليوم تَقف إلى جانب الجمهورية العربية السورية، ولولا الأخلاق –نريد أن نؤكد على هذه الناحية– لولا الأخلاق التي تحلت بها الثورة الإسلامية في إيران لما نجحت الثورة، لأن الأخلاق هي أساس المنطلقات، ولأن الأخلاق هي أساس العقائد، فعندما انطلقت الثورة مُتوجة بالأخلاق والقيم، حفظت العلم والعلماء، صانت البلاد من الدمار

والخراب، وقصدت وجه الله في عملها، انتصرت الجمهورية الإسلامية الإيرانية، حتى أصبحنا نرى كبار قادة الغرب يَركعون على أعتاب الجمهورية الإسلامية الإيرانية، ويجلسون معها ليفاوضوها على منشآتها النووية السلمية، ماذا فعلت إيران للعالم؟ هل حاربت دولة عربية أو أوروبية؟ إيران بلد إسلامي، إيران بلد محب للعرب، بلد محب للإسلام، بلد يعشق السلام للعالم أجمع، فلماذا تحاربونه أيها الغربيون؟ لماذا تحاربون إيران؟ ألا تعرفون أيها العرب لماذا؟ هل تجهلون لماذا؟ لأنهم لا يريدون دولة عربية أو إسلامية تسير في طريق العلم، تسير في طريق التقدم والازدهار، هذا هو السر في ذلك، ومن هنا شنت الحرب على سوريا، الحركة التصحيحية المجيدة التي نَتغنى بها في ليلنا ونهارنا، التي قادها القائد المؤمن حافظ الأسد – طيب الله ثراه–، بنى لنا السدود والمصانع والمدارس والجامعات والمعاهد وفتح الشوارع، وفعل وفعل وفعل، أربعون عاماً من العلم والازدهار، وعندما جاءنا الضباع الغرباء إلى سوريا، ودنسوا تراب وطننا مع الحثالة العملاء من بعض أبناء هذا الوطن، الذين وَضعوا أيديهم في يد بني صهيون، في يد نتنياهو، لكي يقولوا له مُعلنين ولائهم له: سندمر وطننا من أجل حفظ أمانك وأمنك يا إسرائيل، سنقتل بعضنا من أجل رضاك يا نتنياهو، سندمر كل ما بنيناه في سنين طويلة في أيام وسنين قليلة، لكي ترضى يا أوباما ويا أردوغان القزم، لكي يرضى أذنابكم، لكي يرضى خدمكم، لكي يرضى عملائكم، ولكننا نقول لكم: عهداً مِنَّا في التعامل مع أهلنا الشرفاء في درعا الحبيبة درع الوطن، سَنُطَهِّر سورية، وسينطلق هذا المشروع، –وانطلق .. نعم انطلق المشروع– مشروع التطهير من الإرهاب ورجسهم، انطلق من درعا الحبيبة، تحية إلى أهلنا في درعا الحبيبة، سيسجل التاريخ لكم يا شيوخ العشائر أنكم كنتم رجالاً بحق، أنكم كنتم درعاً للوطن، أنكم أنتم قلتم للأردني خادم بني صهيون: لن نتمثل بأوامرك، فسوريا وطننا وأرضها أرضنا وشعبها أهلنا، ومن درعا –كما نحن نعتقد– سينطلق الحب والأمان والاستقرار إلى ربوع هذا الوطن الحبيب، ولن تكون درعا مدينة إرهابية كما صورها الغرب لنا، لا، نحن نعرف درعا مدينة حب وسلام، بشبابها برجالها بشيوخها الكرام، وهكذا كل شبر من أرض هذا الوطن.

اسمعوا أيها الغرب، اسمعوا يا من تكيدون لنا، اسمعوا أيها الصراصير، اسمعوا أيها الجرذان، إن الجيش العربي السوري لكم بالمرصاد، ونحن خلف هذا الجيش الذي يَحقن دمائنا، والذي سيطهر لنا أرضنا، وسنعود بعدها إلى بلداننا إلى بيوتنا، لنقول لكم: هنا أرضي، هنا وطني، هنا بيتي، هنا أهلي، ارحلوا أيها المرتزقة، ارحلوا أيها الضباع الغرباء، فإن لم تَرحلوا فأنتم ومصيركم تحت أقدام المقاومة اللبنانية المتمثلة بحزب الله،

وتحت أقدام الجيش العربي السوري المحب لله وللرسول ﷺ، وكل من يحب وطنه –يا سادة– كل من يغار على وطنه يدعو دعوة واحدة من قلبه للجيش العربي السوري، والله لولا تضحيات جيشنا لما عرفنا كيف ننام ولا هنئنا بطعام ولا بشراب، ولما شعرنا بشيء من الأمن والاستقرار.

نحن معك أيها الجيش العربي السوري، أرواحنا فداك، ونفوسنا تخدم نعليك اللذين يَغبران من أجل حماية أمننا واستقرارنا، شاء من شاء، وأبى من أبى، إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

الخطبة الثانـ٢ـية:

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله حق حمده، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن مُحَمَّداً عبده ورسوله وصفيه وخليله، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

عباد الله اتقوا الله، واعلموا أنكم ملاقوه، وأن الله غير غافل عنكم ولا ساه.

اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والاموات، اللهم ارحمنا فإنك بنا رحيم، ولا تعذبنا فإنك علينا قدير، اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين، اللهم زدنا ولا تنقصنا وأعطنا ولا تحرمنا، اللهم اسقناً غيثاً مغيثاً هنيئاً مريئاً مريعاً سَحاً غدقاً طبقاً مجللاً إلى يوم الدين، اللهم إنا نسألك أن تنصر الجيش العربي السوري المحب لك ولرسولك، اللهم إنا نسألك أن تُثبت الأرض تحت أقدامهم، وأن تكون لهم معيناً وناصراً، اللهم وفق السيد الرئيس بشار الأسد إلى ما فيه خير البلاد والعباد، وخذ بيده إلى ما تحبه وترضاه، سبحان ربك رب العزة عما يصفون، والسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

مديرية أوقاف دمشق